الفصل التاسع

الإحساس[1]

يخرج المرء إلى الطريق ، فيرى المارة والعجلات ، ويسمع ضجيج الناس ، وأبواق السيارات ، وهو بين كل هذا يريد أن يسير وأن يسدد خُطاه ، متوجهاً إلى غايته متجنباً الاحتكاك بالمارة ، متحاشياً التصادم بالسيارات . فكيف يتيسر له كل ذلك ؟

لا بد من « معرفة » هذه الأشياء المختلفة المحيطة به ، ليشق طريقه ، ويسلم من الأخطار .

كيف تتم له هـذه « المعرفة » ؟ وما هى العوامل المختلفة التى تتعاون على العلم بالأشياء الخارجية ؟

المعرفة التامة بالأشـياء ، المميزة لهـا ، المحددة لمكانها ، تسمى « الإدراك الحسى » . فإذا سمعت بوق السيارة فى الطريق ، فإنك تميل جانباً ، لأنك أدركت أن وراءك سيارة .

تسمع السيارة قادمة من خلفك فتتجنبها ، هـذا السلوك الذى يتم فى لحظة قصيرة ، يحتاج منـا إلى تحليل طويل . ويحسن أن نبسط أجزاء هذا السلوك ، ثم نعود إلى الكلام على كل جزء .

وإذا وضعنا اللغة العلمية جانباً . ونظرنا إلى الأمر نظرة خالية من التعقيد ، فإننا نبسط السلوك كما يأتى : —

١ — صوت السيارة .

---

(١) Sensation.

٢ — الأذن .

٣ — الإحساس بسمع الصوت .

٤ — تمييز هذا الصوت بأنه صوت سيارة .

٥ — تجنّب السيارة .

والجزء الخامس رد على مؤثر خارجي .

أما الأجزاء السابقة فهى جماع « المعرفة » بشيء خارجي .

وقد تسأل هل يستطيع الأصم أن يسمع الأصوات ؟ إنه لو سار فى الطريق لدهمته السيارات من الخلف وهو غير سميع .

« فالسمع » ضرورى « لمعرفة » الأصوات .

« والبصر » ضرورى « لمعرفة » الضوء والألوان والأشكال .

وسنفرد باباً خاصاً لهذه المعرفة التى تعقب السمع والبصر .... ألخ . وهو باب الإدراك الحسى .

أما هذا السمع « الضرورى » للمعرفة ، وهـــذا البصر « الضرورى » للمعرفة . . . . . ألخ ، فهو الذى نسميه الإحساس .

ويعرفون الإحساس بأنه الظاهرة الأولية فى الحياة العقلية ، التى تنشأ عن أثر الضوء أو الصوت أو الحرارة .... ألخ فى أعضاء الحس[1] .

وأغلب إحساساتنا تنشأ عن تأثير العالم الخارجي فى الحواس المختلفة . ولكن هناك إحساسات أخرى أسبابها باطنة ، كالإحساس بالجهود حين نحرك عضلاتنا ، أو الإحساس بالجوع والعطش .

ويمر الإحساس فى مراحل ثلاث : —

(١) Nouv. Traité de psych. Dumas Tome II page 83.

١ — مرحلة فيزيقية[١] :

وهى المؤثرات الفيزيقية ، كالضوء ، والصوت ، والحرارة ، والتيارات الكهربائية ... ألخ ، التى تنبعث عن الأشياء الخارجية ، وتصل إلى أعضاء الحس .

٢ — مرحلة فسيولوجية :

ويتم فى هذه المرحلة تأثر أعضاء الحس ، ثم انفعال أعصاب الحس العامة ، أو الخاصة ، ووصول الأثر إلى المراكز العصبية .

٣ — مرحلة نفسية :

هى الشعور بهذا الأثر . ولا يتم الإحساس إلا فى هذه المرحلة ، لأن جميع الظواهر التى سبقت الإحساس ، بما فيها التغيير الذى حدث فى المخ ، ذات طبيعة فسيولوجية[٢] .

وقد فطن الناس من قديم إلى الحواس الخمس ، وذلك تبعاً لأعضاء الحس ، وهى البصر والسمع والشم والذوق واللمس . ولكننا الآن بفضل الأبحاث الفسيولوجية ، قد توصلنا إلى معرفة أنواع أخرى من الإحساسات . وسنذكر فيما يلى أنواع الحواس .

١ — الحواس الباطنة :

وهى الحواس المتصلة بكثير من العضلات والأعصاب والأجهزة المختلفة ، كالجهاز التنفسى والهضمى والدموى ... ألخ . وهذه الإحساسات هى الإحساس بالتعب ، والإحساس بالثقل أو الخفة ، بالضيق ، بالجوع ، بالعطش .... ألخ .

٢ — حاسة اللمس :

وهى التى تحس بالخشونة والنعومة والصلابة واللين ، وعضو هذه الحاسة هو

---

(١) Physique. (٢) المرجع السابق صفحة ٨٣ .

سطح الجلد . ويحدث الإحساس من تهيج الأعصاب التى تنتهى إلى سطح الجلد وهناك بعض أجزاء الجلد تكون أكثر تأثراً من غيرها بالملمس ، فأطراف اليد — وهى الأصابع — أكثر مواضع الجلد إحساساً باللمس . كذلك الذراع أكثر إحساساً من الظهر . والواقع أن للمران أثراً فى حدة اللمس ، فاليد اليمنى أفضل من اليسرى فى إحساسها .

وحاسة اللمس هى أعم الحواس وأشملها ، وربما كانت هى الحاسة الفطرية الأصلية ، وليست سائر الحواس إلا فروعاً منها تميزت واختصت ؛ فالبصر إن هو إلا لمس يتأثر بالموجات الضوئية ، والسمع لمس يتأثر بالموجات الصوتية .

٣ — الإحساس بالحرارة :

ظل الناس طويلاً يخلطون بين اللمس و بين الإحساس بالحرارة ، وقد ظهر أخيراً اختلافهما . فقد تبين من التجارب الحديثة أن مواضع سطح الجلد التى تتأثر بالضغط أو باللمس ، غير التى تتأثر بالبرودة أو الحرارة . وهذه الحاسة قد تكون باطنة كالإحساس بالحمى أو الرعشة ، وقد تكون ظاهرة نتيجة الاتصال بالوسط الخارجى ؛ وهذا الإحساس نسبى ، فإذا كان الجسم المتصل بسطح الجلد يماثل فى حرارته حرارة الجسم ، لم يميز الإنسان الإحساس .

٤ — الإحساس العضلى :

وهو الإحساس بالضغط والمقاومة والمجهود ... ألخ . ويختلف العلماء فى تحديد عضوه ، هل هو من احتكاك العضلات بعضها ببعض ؟ أو نتيجة احتكاك العضلات بأعصاب الحس ؟ أو هو من عمل أعصاب الحركة و بذل أى مجهود ؟

هذه الحواس السابقة يشترط فيها تماس المؤثر الخارجى وعضو الحس حتى تتم عملية الإحساس .

٥ — حاسة التوازن :

وهى الإحساس بأوضاع الجسم أو أعضاء الجسم المختلفة فى الفضاء . فالإحساس بالوقوف أو الجلوس أو الاضطجاع ، أو بحركة الذراع أو القدم ، كل هذا هو ما نسميه حاسة التوازن .

٦ — حاسة الاتجاه :

وهى حاسة لم تكتشف إلا حديثاً ، وهى إحساس باتجاه الجسم إلى اليمين أو اليسار أو الأمام أو الخلف ، وعضو الحاسة هو القنوات الهلالية فى الأذن ، وهذه القنوات مملوءة بسائل يتمايل كلما تمايل الجسم .

٧ — الذوق والشم :

وهما حاستان أكثر تعييناً مما سبقهما ، وعضو الأولى اللسان والثانية الأنف ، ويجتمعان معاً تحت نوع واحد من الحواس ، لأنهما يتأثران تأثراً كيمائياً ، ويتصلان ببعض صلة كبيرة ، كما يحدث حين يصاب الإنسان بزكام ، فيضعف الشم والذوق فى وقت واحد . ويتأثر الذوق بالحلو والمالح والحامض والمر . أما الشم فهو إحساس عن بعد ، إذ تخرج رائحة من الجسم يحملها الهواء وتتصل بالأنف فيتم الإحساس . ونحن نصف المشمومات بالمصدر الآتية منه ، فنقول رائحة ورد أو بنفسج .

٨ — حاسة السمع :

وهى الإحساس بالأصوات والأنغام ؛ ويسمع الشخص عن طريق تأثر السائل الذى يجرى داخل الأذن من تذبذبات الهواء ، وتحصل الأنغام من الذبذبات المتساوية فى الطول ، مثل ضربات الموسيقى أو أى إيقاع منظم . أما الأصوات العادية أو الدوى ، فهى نتيجة عدم انتظام الذبذبات الأثيرية بين الطول والقصر وعدم تجانسها . ويستطيع الإنسان التمييز بين الأصوات فيما بينها ، وذلك تبعاً

للسلّم الموسيقى الذى يشمل سبع درجات . فهذه الحاسة إذن أدق عنـد الإنسان من حاستى الشم والذوق ، لأننا لا نستطيع التفرقة بين المشمومات من نوع واحد إلا فى صعوبة . ومن ناحية أخرى يستطيع الإنسان أن يميز الأصوات فى ذاتها لا عن المصدر الذى صدرت عنه .

٩ — حاسة البصر .

وهى الإحساس بالمرئيات بمـا فيها من أضواء وألوان وأشكال . وعضو هذه الحاسة هو العين . والبصر والسمع والشم من الحواس التى يكون مؤثرها بعيـداً عن الإنسان ، ولذا نحن نرى الأشـياء عن بعد . وللعين خاصة تركيز الصور التى تراها فى بؤرة واضحة على العدسة ، أى المكان الذى تكون فيـه الصورة أوضح ما تكون ، وهو بالقرب من عصب الإبصار .

وهذه الحاسة أكثر مما سبقتها تعييناً وتمييزاً لمـا تستقبله من مؤثرات ، فلها القدرة على تمييز الألوان السبعة المعروفة ، ولها أكثر من هذا القدرة على الإحساس بالدرجات المتعددة التى يحتوى عليها اللون الواحد .

هذه هى حواس الإنسان ، التى يتعرف بها العالم الخارجى ، وبدونها لا تتم له أى معرفة خارجية . فالأعمى الذى ولد كذلك ، لا يعرف ما الألوان وما الأنوار ؟ ولو تصورت إنساناً خالياً من الحواس جميعاً ، السمع والبصر واللمس والذوق والشم وسائر الحواس ، لكان هذا الإنسان أقرب إلى النبات منه إلى الإنسان .

وليست جميع الحواس بالنسبة للإنسان ذات أهمية واحدة . وإذا رجعنا إلى أنفسنا نستقرىء أى الحواس أكثر استعمالاً وأكبر فائدة ، لكانت حاسة البصر فى مقدمتها ، ويتلوها السمع . وليست الحواس بمثل هذا الترتيب وهذه الأهمية عند جميع الحيوانات ، إذ أن أول وأهم حاسة يستعملها الكلب ويستفيد منها ، هى الشم .

هـذا وكلما كثر استعمال الحاسـة تحددت وأصبحت لهـا القدرة على تمييز المؤثرات الخارجية ، ولذا تجد البصر — لأن الإنسان يستعمل هذه الحاسة أكثر من غيرها — قد وصلت إلى هذه الدرجة . ويلى حاسة البصر فى أهميتها حاسة السمع . ويخيل إلينا أن هاتين الحاستين ، البصر أولا والسمع ثانياً ، هما أكثر الحواس استعمالاً وفائدة للإنسان ، من حيث هو عامل ، ولذا كان البصر أكثر الحواس اكتساباً للمعلومات . ذلك أنه قد ثبت بالتجارب أن أغلب النـاس يفهمون عن طريق القراءة ، أى عن طريق البصر ، أكثر مما إذا سمعوا ما يُقرأ عليهم .

والخلاصة أن الإحساس يمر فى هذه الأدوار :

١ — وجود « مؤثر[١] » خارجى يؤثر فى عضو الحس .

٢ — انفعال عضو الحس ، وتأثر أعصاب الحس ، ونقل « الأثر[٢] » إلى المراكز العصبية .

٣ — الإحساس ، أى الشعور بالأثر الذى أحدثه المؤثر .

فإذا رأيت شخصاً ، فالإحساس الذى حصل ينقسم إلى ثلاث مراحل ، الأولى وجود الشخص وهو المؤثر الخارجى ، إذ لو لم يكن موجوداً لما رأيته ؛ والثانية تأثر العين بصورة الشخص الخارجيـة ، والتى وصلت إلى العين فى هيئة موجات ضوئية ، ثم انفعال عصب الإبصار وانتقال هذا الأثر إلى المخ ، والثالثة الشعور بالأثر .

كذلك حين تسمع مدفع الظهر ، يكون هذا دليلاً على انطلاق المدفع الذى يحدث الصوت ، ودليلاً على أن هذا الصوت قد وصل إلى الأذن وتأثرت به ، وعلى أن أعصاب السمع قد نقلته إلى المخ ، ثم على الشعور بوجود الصوت .

---

(١) Excitant.

(٢) Excitation.

الادراك الحسى

« أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ، فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ ، وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ »

[سورة الحج — ٤٥]

ضربنا فى الفصل السابق المثل بالمار فى الطريق الذى يسمع صوت السيارة فيتجنبها ، وقلنا إن هذا السلوك رد على مؤثر خارجى ، ووجدنا أن « معرفة » المؤثر الخارجى تتم أولاً عن طريق الإحساس .

والواقع أن تقسيم العمل إلى إحساس ، وإلى معرفةٍ تعقب الإحساس ، هو تقسيم صناعى . ولكننا لسهولة البحث فصلنا الإحساس ودرسناه على حدة . أما المعرفة بالأشياء الخارجية فهى كلٌ لا يتجزأ .

ولست تجد الإحساس الخالص الخالى من المعرفة ، إلا فى النادر ، عند الطفل الحديث الولادة ، فهو يرى ويسمع ، ولكنه لايعرف مايرى وما يسمع[1] .

هذه المعرفة التى تعقب الإحساس تسمى الإدراك الحسّى[2] .

وينبغى أن نجعل فى بالنا أن هناك شرطين[3] يتوفران فى كل إدراك حسّى :

---

(١) Woodworth p. 312.

(٢) Perception

(٣) Psych. par, Guillaume p. 144

(١) كل إدراك حسّى هو فى أول الأمر رد من الكائن جملة ، على مجموعة من المؤثرات .

(٢) كل إدراك حسّى عبارة عن ردّ على هذه المجموعة من المؤثرات صادر عن شخص له ذكرياته ، وعاداته ، واتجاهاته الفكرية والوجدانية .

ونعود بعد ذلك إلى تحليل عملية الإدراك الحسّى .

الانتباه :

قبل أن ندرك شيئاً ما ، يجب أن نحضر أنفسنا ونهيّئ عقولنا لإدراكه . والواقع أن كل عمل أو سلوك يحتاج إلى التهيئة والانصراف إليه والاستعداد له قبل القيام به . فالكاتب إذا أراد الكتابة يحضر نفسه ، ويبعد عنه جميع المشاغل الأخرى ، وينصرف عن التأثر ، أو قل إنه يتعمد الانصراف عن التأثر بأى شاغل يحيط به ، ليفرغ نفسه ويستعد للكتابة . هذا الاستعداد هو ما نسميه الانتباه ؛ وهو يتطلب أن يتخذ الشخص هيئة خاصة تلائم ما يريد أن ينصرف إليه ، وأن يرهف الحواس التى يحتاج إليها فى درك ما يريد أن يدركه ، كالشخص الذى يستمع إلى مغنٍّ ، فإنه يجلس جلسة معينة متوجهاً إلى المغنّى ، ثم يفتح أذنيه وعينيه لتلقى الأغانى وتتبع الحركات والإشارات ، حتى لا تفوته آهة أو تفلت منه إشارة . وهو فى وضع جسمه يكون متطلعاً إلى الأمام مشرئبًّا بعنقه ، مصوّباً عينيه ، مرهفاً أذنيه ، حتى يتلقى كل شىء . وفى البصر تجد العين مركزة على الشىء الذى يريد الشخص أن يراه ، حتى ترتكز الصورة التى يراها فى بؤرة واضحة على العدسة كى يحسن الإبصار ، وإذا كان الشىء متحركا تتبعه بكل دقة وتركيز ، حتى يكون الإحساس كاملاً دقيقاً .

هـذا هو الانتباه المتعمد الذى يقصد صاحبه أن يبلغ به إلى معرفة الأشياء الخارجية . وكثيراً ما يكون هناك دواعٍ تجذب الإنسان وتدفعه إلى أن ينتبه رغماً عنه . وفى هـذه الحالة يتخذ هيئة الانتباه التى ذكرنا سابقاً . وتختلف العوامل التى تدفعنا إلى الانتباه ، وتختلف من شخص إلى آخر ، وتختلف بحسب الظروف والأحوال وبحسب الميول الموجودة عند كل شخص . فإذا ذهب عدة أشخاص إلى ملعب كرة القدم مثلاً ، فقد يلتفت أحدهم إلى اللاعبين ، وقد ينتبه آخر إلى المتفرجين ، وثالث إلى اللعب نفسه . . . ألخ ، وذلك حسب ما يدعو إلى الانتباه عند كل منهم .

الإدراك الحسّى :

بعد أن يحضر الإنسان نفسه للإدراك عن طريق الانتباه ، سواء فى ذلك ما كان معتمداً أو غير معتمد ، كيف يتم الإدراك بعد ذلك ؟

أمامك كتاب فكيف تدرك أن هـذا الشىء كتاب ؟ سمعت صوتاً فكيف تدرك أن هذا الصوت صوت سيارة ؟ دخلت فى الظلام حجرة لتحضر طربوشاً فكيف تدرك الطربوش حين تلمسه ؟ مررت بمنزل فشممت رائحة خاصة فكيف تدرك أنها رائحة لحم يشوى ؟ تذوقت شراباً فكيف تدرك أنه شراب البرتقال أو الليمون .

كل هذه الأمثلة مدركات حسية قائمة على الإحساس ، فكيف وصل الإنسان إلى معرفة الكتاب أو السيارة أو الطربوش أو الشواء أو الشراب ؟ لنأخذ مثل الكتاب الذى تراه أمامك ونحلل كيف وصلت إلى إدراكه على أنه كتاب ، فهناك :

١ — مؤثر خارجي ، وهو هنا الكتاب .

٢ — الحاسة ، وهى الواسطة بين المؤثر الخارجي والمخ ، وهى هنا العين .

٣ — انفعال العصب البصرى ، ونقل هذا الأثر إلى مركز الإبصار فى الجزء الخلفى من المخ .

وإلى هنا تتم عملية الإحساس التى شرحنا سابقاً .

٤ — استقبال العقل للإحساس ، فيشعر بوجوده ، ثم يؤوله ويخلع عليه معنًى مفهوماً .

فالإدراك الحسى هو شعور الشخص بالإحساس أو مجموعة الإحساسات التى تصل إليه عن طريق حاسة أو مجموعة من الحواس ، ثم تأويل ما يشعر به فينتج عن ذلك معرفة الأشياء الخارجية .

الشعور بالإحساس :

من الصعب التفرقة بين الإدراك والإحساس ، إذ أنك لا تجد فى الواقع — إلا فى الأحوال النادرة — إحساساً لا يعقبه إدراك . فالطفل الحديث الولادة يتأثر بشتى الإحساسات ، ولكنه لا يدرك منها شيئاً ، أى لا يكوّن لها معنى صحيحاً فى ذهنه ، أو بعبارة أخرى لا يستطيع أن يلائم بين نفسه وبين مقتضيات الإحساسات التى تصل إليه ، فهو يخطىء ويتعثر حين يرد على المؤثرات الخارجية ، لهذا السبب فإنه يرى القمر فلا يستطيع أن يدرك أنه من البعد بحيث لا يمكن الوصول إليه ، ولذلك يحاول الإمساك به . ثم لا يلبث أن يميز بين الإحساسات المختلفة ، كالسمع والبصر مثلاً . وإذا وخزه دبوس بكى لأنه يشعر بالألم ، ولكنه لا يدرك مصدر الإحساس .

ومن الأمثلة التى نعثر فيها على إحساس خالص مَثَل الشخص المستغرق فى النوم ، الذى يستيقظ فجأة لسماع صوت مزعج ، فإنه يرى ويسمع ولكنه يظل عدة لحظات لا يدرك ما يرى وما يسمع ، إذ هـذه الإحساسات لم تتميز فى عقله ، ولو أنه يشعر بها . أما فى حالة النوم العميق أو التخدير مثلا فإنه لا يشعر بها ولا يدركها .

أو كالمسافر فى قطار السكة الحديدية ، يجلس فى مقعده يسمع دوياً مزعجاً وضجيجا مستمراً ، عنده إحساس بهذه الأصوات ، ثم يشعر ويميز هذا الدوى وهذا الضجيج حتى إذا ما انصرف ذهنـه إلى شىء آخر كأن ينهمك فى قراءة جريدة فى يده ، لم يدرك من هذا الصخب شيئاً ، ولم يشعر به ، ولكن الصوت يصل إلى أذنيه ، وتتأثر به أعصاب الحس ، فعنده إذن إحساس دون أن يكون عنده إدراك .

أو كلاعب الشطرنج الذى يمسك لفافة التبغ بين أصابعه يدخنها ، ثم ينصرف إلى اللعب والتفكير فيه ، فتحترق اللفافة حتى تصل إلى يده وتلسعها ، فلا يدرك الألم الذى يحدث بأصابعه ، ولا يشعر به . فالشـعور بالإحساس أمر ضرورى لإدراك الأشياء . والإدراك الحسى هو الشعور المباشر لشىء أو موقف خارجى تتأثر به حاسة واحدة أو مجموعة من الحواس ويصل إلينا عن طريق الإحساس .

تأويل العقل للإحساس :

تبين لنا أن الإحساس الخالص غير موجود إلا فى النادر ، ولا بد من إضافة الإدراك إلى الإحساس حتى تتم المعرفة بالأشياء الخارجية .

والإحساس الذى يصل إلى أذهان عدة أشخاص من شىء خارجى واحد ، يكون واحداً عند الجميع ، لأن التركيب الفسيولوجى للشخص العادى متفق عند

جميع الناس . فإذا كنا فى حجرة مقفلة وسمعنا صوتاً عالياً ، فإن هذا الصوت عبارة عن موجات هوائية ذات طول مخصوص ، تتأثر بها آذاننا جميعاً ، وتنقلها أعصاب الحس إلى مركز السمع فى المخ ، فالإحساس بهذا الصوت واحد عندنا جميعاً ، فهل يكون إدراكنا له متفقاً ؟ قد نختلف فى إدراكه ، فأحدنا يقول إنه صوت طلقة نارية وآخر صوت باب يقفل . وثالث صوت فرقعة عجلة سيارة . . . . فإدراكنا للشىء الواحد يختلف من شخص إلى آخر ، ويختلف عند الشخص الواحد باختلاف الزمان ، فنيم يقع هذا الخلاف فى الإدراك ؟ بل كيف ندرك الإحساس الذى يصل إلى الذهن ؟ ذلك أننا قد نرى جميعاً شجرة أو شخصاً أو منزلا أو أى شىء آخر ، ثم نتفق على إدراك ذلك الشىء بشكل واحد ، فهناك أحوال نتفق فيها على الإدراك ، وأحوال أخرى نختلف فيها ، ويستمد ذلك من عدة عوامل نشرحها فيما يأتى :

١ — الشىء الخارجى .

يتوقف الإدراك الحسى إلى درجه كبيرة على طبيعة الشئ الخارجى . فهناك أشياء مألوفة تقع تحت بصرنا وسمعنا كل يوم ، واتفقنا على تسميتها ومعرفة فائدتها وهناك أشياء جديدة نراها لأول مرة .

والإدراك الحسى هو اكتساب حقيقة خارجية ، تصبح معرفةً بانتقالها إلى العقل ، ومتى وصل الشىء الخارجى إلى الذهن نحاول أن نؤوله ، وإلا بقى غامضاً لا معنى له . فالأشياء التى نتفق جميعاً على إدراكها ومعرفتها بشكل واحد ، تكون فى الواقع أشياء مألوفة سبق لنا إدراكها ، وإذا نظرت إلى الطفل الصغير تجد أنه يخطىء فى إدراك الكتاب أو الشجرة ، كما نخطىء نحن فى إدراك الأشياء التى نراها لأول مرة .

والشيء الخارجي يكون مركباً عادة من عناصر مختلفة ، أو صفات متعددة ، ولكننا فى الواقع ندركه فى « مجموعه » ، بحيث تصل صورته كاملة إلى الذهن . فالكتاب له صفات كثيرة ، شكله وحجمه ولونه ... ألخ . وإذا فرضنا أن الشيء الخارجي ، عبارة عن حجرة فيها أثاث مركب من كراسى ومكتب ومناضد ، فإدراكنا الحسى لها هو انطباع هذه الصورة بمجموعتها فى الذهن كما هى عليه . أما إذا أدركت العلاقات الموجودة بين الكراسى ، أو النظام الموجود عليه الأثاث ، أو أن الكرسى فى ذاته شيء صالح للجلوس عليه ، فلا يسمى هذا إدراكا حسياً . وبعد وصول هذه الأشياء إلى الذهن يحاول العقل إعطاءها معنى ، وهذه طبيعة من طبائع العقل ، لأن الإنسان على حسب المعنى أو الصفات التى يدركها من الأشياء يكون تصرفه بإزائها .

٢ — التأويل .

يتوقف الإدراك الحسى على ناحيتين ، ناحية موضوعية هى الشيء الخارجي نفسه ، وناحية شخصية تتوقف على أنفسنا . واختلاف الإدراك ينشأ من الطريقة التى ننظر بها إلى الأشياء ، وكيف نوجه انتباهنا إليها ، ويتوقف على عدة عوامل أخرى . فإذا رأيت شيئاً مستديراً أحمر تقول تفاحة ، وإذا سمعت صوتاً وصفيراً تقول قطارٌ ، أو سمعت بوقاً تقول سيارة ، وإذا شممت رائحة طيبة تقول هذا ورد .... ألخ . ومع ذلك فإنك لم تر القطار نفسه ولم تنظر الوردة . وهناك عوامل كثيرة تتدخل فى تفسير ما يصل إلينا من إحساس ، نجملها فيما يلى :

(ا) الترابط .

تتكون التفاحة مثلا حين إدراكها من جملة إحساسات ، شكلها وطعمها وحجمها ورائحتها وملمسها . وأغلب الأشياء التى ندركها إدراكا حسياً ، يشترك

فى إدراكها جملة حواس . فنحن حين ندرك التفاحة نربط فى الذهن شكلها برائحتها بطعمها بتلمسها بحجمها ، ولو لم يوجد هـذا الربط لاختلط علينا التفاح الحقيق بالتفاح الصناعى الذى يشبهه فى شكله وحجمه فقط .

و إذا أدركت شيئاً لأول مرة لا تستطيع أن توجه انتباهك إلى كل جزء من أجزائه دفعة واحدة . و إذا كان حقاً أن المجموع يكون كله موجوداً بالذهن فإنه يكون غامضاً ، ولا تعرف منه على وجه الدقة إلا الجزء الذى تركز فيه انتباهك . فإذا رأيت الشيء مرة ثانية تكون قد عرفت ذلك الجزء الذى اهتممت به وأدركته فتنصرف من جديد إلى جزء آخر ، ثم تترابط الأجزاء بعضها ببعض .

إذا نظرت إلى التقويم الذى يعلق بالحائط ، تجده مركباً من « لوحة » من ورق « الكرتون » و بهـذه اللوحة صورة أو إعلان أو زخرف ، ثم فى أسفلها التقويم نفسه به تاريخ اليوم باللغة العربية والأجنبية ، من هذه المجموعة التى تبصرها لا تدرك فى الواقع إلا شيئاً واحداً هو الذى يتركز فيه انتباهك ، إلا إذا انتقلت ببصرك وانتباهك من جزء إلى آخر بسرعة . فإذا فرضت شخصاً لم يسبق له إدراك مثل هذا التقويم فإنه لن يعرفه لأول مرة ، ولكنه قد يدرك الصورة أو الزخرف فقط لأنه يعرفه قبل ذلك ، ثم يربط بعد ذلك التقويم بتلك الصورة ، ثم يربط التقويم بالتـاريخ . فأنت تدرك الشيء بأكمله مع أنك لا تدرك إلا جزءاً منه ، لأن أجزاءه مرتبطة فى ذهنك . وهكذا كلما تكرر الإدراك ، وضح وزاد المعنى .

(ب) التجارب السابقة .

تقوم المعرفة على التعلم والكسب والخبرة السابقة . وتلعب الذاكرة دوراً كبيراً فى هذا الشأن ، إذ يتـذكر الإنسان ما يمر به من خبرة ، فيصبح الجديد قديماً ، والمجهول معروفاً . ثم إن معرفة الأشياء لا تتم دفعة واحدة ، بل تتدرج فى الوضوح

كلما طال عهد الإنسان بها ، وهذا نتيجة الذاكرة . وبدون الخبرة السابقة تكون المعرفة ناقصة غامضة ، فالشخص الذى يعرف السجاد لأنه رأى بعضاً منه فى المنازل ، غير هواة السجاد الذين يميزون أصنافه المختلفة ، وقد يخلط الجاهل بين السجاد وبين أنواع أخرى لا تمت إليه بصلة . والسيارات فى نظر الشخص العادى متقاربة ، أما صاحب السيارة فإنه يميز أنواعها المختلفة . والواقع أن الأشياء تكتسب المعنى الذى نخلعه عليها لا من صفاتها فقط ، بل من فوائدها واستعمالها أيضاً . كذلك الخبرة المباشرة بالأشياء أفضل من المعرفة عن طريق الغير ، أو على حد المثل المشهور « ليس الخبر كالعيان » . لذلك كان العلم النظرى فى الأمور العملية لا يفيد فائدة الخبرة فى كسب المعرفة وتحديدها ، فالطبيب الذى يدرس تشريح الجسم فى الكتب لا تتضح فى ذهنه هذه الحقائق مثل ما إذا شرحه بيده .

فعلى قدر الخبرة السابقة يكون الإدراك . ولذا كان الطفل أقل إدراكاً وفهماً للمحسات من الشخص البالغ ، ويرجع ذلك إلى قلة تجاربه عن الأشياء الخارجية ، وكلما تقدمت السن بالطفل زاد إدراكه .

(ح) الاتجاه العقلى .

اقرأ هذه الكلمات بصوت عال وبسرعة .

ضرير — غدير — أمير — جير — بير — دير

أغلب الناس يقرأون الكلمه الأخيرة وهى « دير » بإعطائها حركة الكلمات التى سبقتها ، وذلك لأن الذهن قد توجه وجهة خاصة ، ولذا يصعب أن يغيرها ، كالسيارة التى تنطلق فى الطريق فيصعب على قائدها أن يغير اتجاهها فجأة . ومن هذا القبيل مثال الشخص الذى يكون جالساً على مقهى فى انتظار

صديق له فيرى شبحاً من بعيد ، فيدرك أنه ذلك الصديق ، لأن ذهنه متجه هذه الوجهة .

وللحالة النفسية التى تسود الإنسان وقت الإدراك ، أثر كبير فى إدراكه . ويختلف التأويل باختلاف تلك الحالة . فإذا كان الشخص فى حالة حب أدرك الأشياء المحيطة به على نقيض ما إذا كان فى حالة كره ، ولذا قال الشاعر .

وعين الرضا عن كل عيب كليلة كما أن عين السخط تبدى المساويا

والأم الفياضة بالحنان نحو ابنها تفزع إليه عند سماعها أى حركة ، وتستيقظ من نومها العميق خوفاً عليه . وكالذى يلدغه الثعبان مرة ، فيرى الحبل فيخاله حية تسعى .

خداع الحواس

قد رأيت أن المدرك الحسى ، أى الصورة التى تدركها فى الذهن عن شىء خارجى بواسطة الحواس ؛ هو مجموعة صفات هـذا الشىء التى تصل إلى الذهن . فالشجرة الموجودة أمامك ، لا تعرفها فى ذاتها ، وإنما تعرف ظواهرها فقط . وقد تقول إن كل الناس يتفقون على أنها شجرة ، وهذا صحيح لأن العقول الإنسانية واحدة وطبيعتها من نوع واحد ، فما يراه إنسان ، يراه جميع النـاس الاعتياديين متفقاً ، وهـذا المدرك الحسى نصل إليه عن طريق التجارب السابقة التى نضيفها بعضها إلى بعض فيتكون هذا المدرك . وكثيراً ما يكون هناك من الأسـباب ما يدعو إلى الخطأ فى خلع المعنى على الشىء ، وفى هذه الحال لن يطابق الإدراك الحقيقة ، وهذا ما يسمى الخداع . ونحن فى حاجة إلى الدقة فى اكتساب المدركات لأن الخطأ فيها قد يؤدى إلى عواقب وخيمة ، كالصيدلى الذى يزن المقادير التى

يركب منها الأدوية يحتاج إلى الدقة الشديدة فى إدراك الموازين . كذلك إدراك الزمان يحدث فيه خداع كبير ؛ فقد تمر عليك دقيقة فيخيل إليك أنها مدة طويلة والعكس ، وذلك حسب الحالة النفسية التى تكون موجوداً فيها . ولذلك إذا احتجت فى أمر من الأمور إلى استعمال الزمان استعمالاً دقيقاً ، فينبغى أن تستعين بالساعة حتى تضمن الدقة ، كالذى يريد أن يسافر فى قطار السكة الحديديه الذى يتحرك فى مواعيد موقوتة .

وللبحث عن سبب الخطأ فى الإدراك ، ينبغى أن نرجع إلى مراحل الإدراك ففيها نجد أسس هذا الخداع . والإدراك الحسى هو نتيجة وجود الأشياء الخارجية ثم وجود الحواس ثم العقل . فالخطأ ينشأ عن هذه النواحى الثلاث : طبيعة الأشياء أو ضعف الحواس ، أو الخطأ فى تأويل العقل .

قد يرجع خداع الحواس إلى طبيعة الشىء نفسه ، إذ يكون مضللاً بطبيعته ، مثل العصا الموضوعة فى الماء فإنها تظهر منكسرة ، لأن طبيعة الأشعة تجعلها كذلك .

ومن هذا النوع الخداع الذى ينشأ عند رؤية الأشكال الهندسية التى تخدع حتماً فى إدراكها ، مثل الخطين المتوازيين اللذين يظهران خلاف ذلك ، والخطوط المتوازية التى تظهر غير متوازية (انظر شكل ٩) . ويعلل الخداع هنا بأن الشكل عبارة عن مجموعة واحدة ، يضطر الناظر إليه أن يراه بأكمله ، ولا يستطيع أن يجرد جزءاً منه . فالمجموعة لها فى إدراكنا صفة مختلفة عن كل جزء على حدة . ونستطيع أن نستغل هذا الخداع فى الحياة العملية ، مثال ذلك الشخص القصير القامة يحسن أن يلبس حلة منسوجها مخطط خطوطاً طولية حتى يبدو طويلاً .

وقد يكون الخطأ نتيجة عدم دقة الحواس ، ويبدو ذلك فيمن عنده قصر نظر أو ضعف فى السمع أو عمى لونى خاص ، فيرى اللون الأحمر أسود بطبيعة

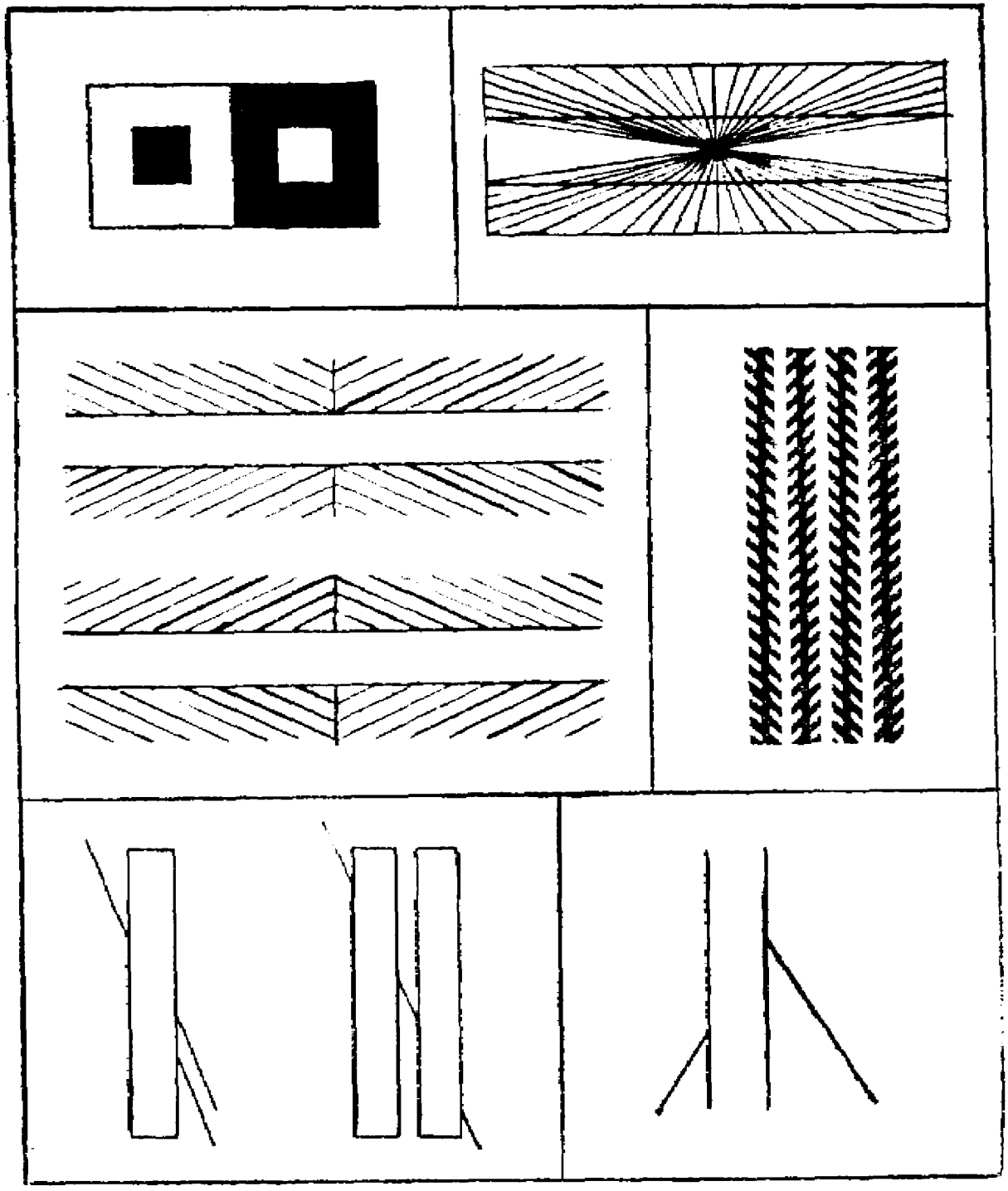

(شكل ٩) خداع البصر

العين . و إذا كنا فى حجرة دافئة وخرجنا إلى الشارع ، فإننا ندرك البرودة الموجودة أكثر مما هى عليه فى الواقع ، وذلك نتيجة ضعف الإحساس الجلدى عن إدراك الفارق الفجائى .

هاتان الناحيتان : ضعف الحواس ، وطبيعة الأشياء ، لا دخل للإنسان فيهما . فطبيعة الأشياء واحدة بالنسبة لكل الناس ، ولذلك نستطيع أن نقول إن ما يظهر لنا مخالفاً للواقع إنما هو الحال الطبيعى .

أما الناحية التى تهمنا من الوجهة النفسية ، فهى الخطأ الذى ينشأ عن تأويل العقل للإحساس .

و إدراك الشىء فى الواقع لا يكون نتيجة إحساس كامل بجميع أجزائه ، بل ما يصل إلى ذهنك هو جزء منه فقط . فأنت تكتفى بجزء من الإحساس ثم تضيف إليه من نفسك ، مثال ذلك إذا سمعت اسمك ينادى به ، وتبينت نغم هذا الصوت ، فإنك تؤول هذا النغم على أنه صوت صديق لك .

فعند الناس تهالك وسبق إلى الإدراك مكتفين ببعض الإحساس . والحقيقة أن الإنسان لا يدرك جميع أجزاء الشىء ، و إنما يدرك بوضوح بعض أجزائه وهى التى يركز فيها انتباهه ، ثم يبنى الإدراك على هذا الجزء . مثال ذلك إذا نظرت إلى بقعة من الحبر لم تقصد منها شكلا معيناً ، ثم طلبت إلى عدة أشخاص أن يدركوا هذا الشكل ، فإنهم يختلفون فى إدراكه ، كل شخص حسب الأجزاء التى يركز فيها بصره ، وحسب خبرته واتجاه عقله .

ينتج عن هذا الاستباق فى الإدراك أن يقع الإنسان فى الخطأ والخداع . فكثيراً ما تتصفح كتاباً فتقرأ كلمة غير موجودة بدل أخرى ، كأن تكون الكلمة غريبة عن موضعها ، أو غير منتظر وجودها ، أو لم تتعودها فى هذا الموضع . فالعين

تتعود إبصار الكلمات متصلة فى الجمل ، فإذا رأيت غيرها مشابهة لها فى الرسم والطول ، نطقت بالأولى التى تعودتها .

وإنما الأمم الأخلاق بقيت فإن هُموا ذهبت أخلاقهم ذهبوا

هل فطنت حين قرأت هذا البيت إلى النقص الموجود به ؟ أغلب الذين يقرأون هذا البيت ، يضيفون من عندهم الكلمة الناقصة وهى « ما » بعد كلمة « الأخلاق » فما هو السبب فى هذا ؟ السر هنا أن القراءة لا تكون لكل حرف وكلمة على حدة ، ولكن للجملة بأكملها ، تعنى بما يجرى فيها من معنى قبل أن تلتفت إلى اللفظ الشارد . وأنت قد تعودت سماع هذا البيت ، لذلك تكتفى منه بالإحساس البصرى ببعض الكلمات ، ثم تضيف الباقى من عندك .

وأكثر من يقع فى مثل هذا الخطأ أولئك الذين يصححون تجارب أو « بروفات » المطابع ، فكثيراً ما تمر عليهم الكلمة الخاطئة دون أن يفطنوا إليها ، وذلك لتهالكهم على الإدراك من غير أن يستتم لهم الإدراك الكامل بما يقرأون ، إذ يستعيرون من معلوماتهم السابقة وتجاربهم الماضية ، أساساً يؤولون به الإحساس .

هذا الخطأ أو الخداع قابل للإصلاح فى بعض الحالات ، وغير قابل فى حالات أخرى . فإذا استطعت أن تتحقق الشىء بنفسك أصلحت خطأك ، وتفطن إلى هذا الإصلاح أثر الاختلاف فى النتيجة التى تتوقعها . فإذا قرأت كلمة تخالف الواقع وكانت هذه القراءة مما يغير المعنى ، فإنك تفطن إلى هذا التغيير ثم ترجع إلى الجملة تصححها ، فتفطن إلى الكلمة التى أدركتها خداعاً . كذلك إذا أدركت شخصاً على أنه صديقك ، تذهب إليه وتهم بتحيته ، وحينئذ تتحقق خطأك .

أما إذا كان الشىء غير قابل للتحقيق ، ففى كثير من الأحيان تصر على ما أدركته خطأ .

ومن أمثال الخطأ المبنى على التجربة السابقة والعادة ، أنك إذا وضعت قطعة من الطباشير على صفحة يدك ، ثم مررت عليها بأصبعيك السبابة والأوسط معقودين ، فإنه يخيل إليك وجود قطعتين من الطباشير . وهى تجربة معروفة من قديم ، ذكرها أرسطو وسميت « خداع أرسطو » .

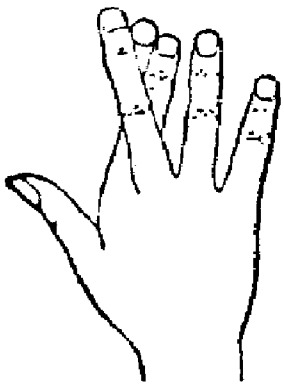

(شكل ١٠)

وهناك من العوامل ما يزيد فى الخداع والخطأ ، وأهمها الاتجاه النفسى . فإذا كنت على ميعاد مع صديق تنتظر مجيئه ، فإن كل صوت تسمعه تعتقد أنه صوت صديقك ، وكل إنسان تراه من بعيد تدرك أنه هو ؛ فوجودك فى حالة خاصة غير الحال الإعتيادية هو ما ينتج الخداع .

ويهمنا فى هذا الشأن تصحيح الخداع ، ويكون هذا إذا أزلنا أسبابه . فينبغى أن يتحقق الإنسان من الأشياء التى يدركها إدراكاً حسياً ، بألا يسرع فى الإدراك ، وألا يدع نفسه فريسة الحالات النفسية التى توجهه وتجعله متحيراً فى إدراكه .